القــطط

كوميديا قائمة من فصلين

الشخصيات:

- شفيق: تلميذ دون الثامنة عشرة.
- شفيقة: خالته وزوجة عمه.
- سلمان: جدّه على أعتاب السبعين.
- الرجل ١: مساعد طبيب من معارف الجد.
- الرجل ٢: ممّرض من معارف الجد.
- المعلم: في حدود الاربعين.
- المفتش: في الخمسين.
- المجاميع: مجاميع من التلاميذ والتلميذات في اعمار متباينة.

اشارات:

- نشرت في مجلة ((الاديب المعاصر)) العدد ٣/ ٤- ١٩٩٢
- شاركت في ((مهرجان المسرح العراقي))
- قدمتها فرقة مسرح ١٤ تموز اخرجها الفنان حسين جوير

الفصل الأول:

[صالة داخلية في بيت من البيوت الشرقية المألوفة. يرتقع سلّم من أحـــد الجانبين. يغيب في الطابق العلوي. يقع تحته. الحمام. المطبخ. المغاسل الخ...

في الجانب الآخر. نافذة واسعة. مفتوحة الستائر. يواجه الجمهور بابـــان أحدهما لغرفة نوم. والآخر بضلفتين، يفضي إلى الخارج.

الوقت، قبيل الظهيرة، أشعة الشمس تملأ البيت.

الأثاث متواضع، ينم عن حال متوسطة، أو دونها. ثلاجة كهربائية. مـــائدة بقوائم متداعية. حولها بضعة كراس ليست افضل منها. جهاز هاتف. فوق محمـل خشبي.. حاجات أخرى، هنا.. وهناك..

سكون عام يشمل كل شيء ثم نسمع صوت من استيقظ لتوّه. صادرة مـــن غرفة النوم. بعد ثوان يحرج شفيق. مرتديا قميصا مقلما نصف ردن، وســـروالا قصيراً من القماش نفسه، أشعث الشعر، معتكر المزاج. تتســم تصرفاتــه بـنزق الأطفال وعنادهم. بينما توحي هيئته العامة بأنه اكبر من ممارسة هذا النمط مـــن السلوك...]

شفيق: (يفرك عينيه. نصف نائم، يردد بشكل آلي) بحثت القطة عـــ... عـــ... عن.. اللحم (يتوقف) وبعد؟ وبعد؟ (يحـــاول أن يتذكــر، يــرن جــرس الهاتف، يهجم عليه) هذا الرنين السخيف هو السبب في هـــذا التشــتت الذي أصاب ذاكرتي. (يقطع أحد سلكيه، بعناية) والان اخرس. اخـــرس

إلى الأبد رن. رن. رن. أهذا بيت راحة. أم دائرة اســتعلامات؟ (يرفــع السماعة إلى اذنه) صمت مطبق... (يتأمل السلك) دقة متناهيــة. ومــن موضع غير مرئي، يعجز الشيطان عن اكتشافه (يرجع إلــى الثلاجــة) بحثت القطة عن اللحم (يتوقف) هيا.. يا شفيق. هيا تذكــر. تذكــر يــا شاطر. ماذا دهاك؟ (يضرب على رأسه) آها تذكرت. لم تعثر القطة علــى اللحم. (يتوقف عاجزاً) ثم؟ ماذا حدث؟ ماذا فعلت القطة الجائعة البائسة؟ آه... دائماً أنسى ذلك (يسرع إلى الغرفة، يخرج بورقة. يقرأ) هجمــت القطة على الفأر (يكررها، مغمض العينيــن، غاديــاً رائحــا. يصطــدم بالثلاجة) اخ (يفرك جبينه متوجعا. تسقط منه الورقة) الف مرة قلت لها لا تضعي عراقيل في طريقي. ولكنها امــرأة مصنوعــة مــن الحجــر. لاتسمع كلاماً ولا تنفذ امراً. (صارخا) تعالي يا شفيقة. تعالي انظــري. ماذا فعلت بابن اختك الوحيد (لاصوت. يصعد بانفعال، يتعــثر. يســقط.. ينهض، يطوي درجات السلم يغيب.. هنيهة قصيرة في الطابق العلــوي. يعود خائبا) يا ترى أين ولّت؟ (يفتح الثلاجة) والثلاجــة فارغــة. آه... ماذا اكل؟ ماذا اشرب؟ آه....

كيف أدخل الامتحان ببطن خاو وريق ناشف؟ (يتوجه إلى الحمام) بحثــت القطة عن اللحم (يتوقف. فجأة) آه الورقة (يعود يخطفها. يعلو صوته من داخــل الحمام) بحثت القطة عن اللحم. لم تعثر القطة على اللحم. هجمــت القطــة علــى الفأر.. أويلاخ على الفأر... أويلاخ على الفأر!! (يكررها بضــع مــرات. يخــرج متوجها نحو الثلاجة. يفرغ محتوياتها على المائدة وهــو لا يكــف عــن ترديــد محفوظته. واذ لا يعثر على ما يبحث عنه يركل الثلاجة بغضب ويعود إلى غرفته. تاركاً الاشياء على المائدة. في طريقه إلى الغرفة يتوقف فجأة يتطلع نحو النــافذة،

كأنه يراها للمرة الأولى) والنافذة.. ما تزال كما هـــي. وســتائرها مفتوحــة! آه (يغلق الستائر. بعصبية يدلف إلى الغرفة. يعلو صوته مردداً محفوظته مصحوبــة هذه المرة بأصوات لطم على الخد وضرب على الصدر.. كثاكل في مناحة).

بحثت القطة عن اللحم.
لم تعثر القطة على اللحم.
هجمت القطة على الفأر.
أويلاخ على الفأر
أويلاخ على الفأر.

[يفتح الباب الخارجي، تدخل شفيقة. تعيد المفتاح إلى حقيبتــها. تسـحب إلى المطبخ سلة كبيرة مليئة بالطماطم. تسير على رؤوس أصابعها حريصة... أن لا تؤثر على شفيق. تتجه نحو النافذة وإذ تهم بفتح الستائر، ترتد كمــن تتجنــب اقتراف ذنب. تعيد محتويات الثلاجة إلى مكانها بامتعاض مكبــوت تذهــب إلــى شفيق. تهم بطرق الباب. تتردد.. تتوقف ريثما ينقطع الصوت. يطول انتظارهـــا. تتغلب على ترددها. تطرق الباب برقة..]

شفيقة: شفيق.. ولدي... افتح الباب (بصوت اعلى) شفيق.. شــفيق (لا جــواب. شفيق مستمر في القراءة) الا تسمعني.. (تهم بفتح الباب. تجــده مغلقــا من الداخل، طرق اقوى وبصوت اعلى) افتح الباب يا شفيق..

شفيق: (من الداخل) هجمت القطة على الفأر. ماذا تريدين يا شفيقة؟ اويلاخ علــى الفأر.. اويلاخ على الفار.. تكلمي يا شفيقة.

شفيقة: (لنفسها) شفيقة؟. بلا خالة ولا.. (تطرق الباب بشيء من الحدة).

شفيق: بحثت عن القطة عن الفأر. كفي عن ازعاجي من الصباح الباكر..

شفيقة: أي صباح؟ لقد انتصف النهار.

شفيق: لينتصف الليل ايضا اذ شاء. انا ادرس. انا اقرأ. لم تعـثر القطـة علـى اللحم...

شفيقة: المسألة مهمة.. ياو لدي

شفيق: اغربي عني... لا وقت لدي.. هجمت القطة على الفأر...

شفيقة: بضع ثوان.. بضع ثوان حسب.

شفيق: اويلاخ على الفأر، امشي.. امشي.. أنا زعلان.

شفيقة: ممن يا ولدي؟ مني؟ من خالتك الحنون شفيقة.؟

شفيق: انت لست شفيقة.. انت صخرة.

شفيقة: انا.

شفيق: انت قطعة من حجر الصوان.

شفيقة: ولد... ولدي!!

شفيق: انت بلا شفقة ولا احساس ولا حنان.

شفيقة: شفيق.. حذار. انت تتمادى كثيراً

شفيق: بل.. بل.. انت عدوة.. بلا عهد ولا امان.

شفيقة: تدبر كلماتك يا هذا. ولا تطلقها جزافاً على هذا النحـو الظـالم. انـا.. لا استحق كل هذه المسبات والشتائم.

شفيق: بل تستحقين. تستحقين اضعاف اضعافـها. ولكنـي مـازلت يافعـاً.. و.. وقاموسي اللغوي طفل رضيع. لم يكتمل نموه بعد ولا يسعفني باكثر فـي الوقت الحاضر، بيد اني اذ اكبر ويصبح الطفل الرضيع رجـلاً ذا اسـنان وانياب يفترسك... او.. او...

شفيقة: ويحي.. يا ويحي.

شفيق: او او يغرقك في بحر من الكلمات. بحر كثيف ثخين مثل.. مثـــل النفـط الاسود.. او.. او مثل القار.. اجل.. اجل.. القار المغلي.. احسن..

شفيقة: ولكن لماذا؟ ماذا فعلت..؟ الا تقول لي ماذا فعلت..

شفيق: انت تخططين لدفني حيا

شفيقة: أتق الله يا ولدي.. أأنا اخطط لـــ.. لـــ..

شفيق: وبذكاء وعلى درجة عالية من الخبث. او بخبث على درجة عاليـــة مـــن الذكاء

شفيقة: لا. لا شك انك قد جننت.. جننّك هذا الدرس المقيت الذي تـــردده منـــذ.. حللت عندنا..

شفيق: ولكي تبرئي ساحتك وتغسلي يديك من آثار جريمتك. تتركين الجوع ينـوب عنك. يسكن معدتي. يأكل احشائي وأموت قبل الامتحان.. ولهذا الســـبب خرجت ولم تجهزي لي افطاري

شفيقة: وي.. وي.. كل شيء جاهز.. أعددته قبلما أخرج عصير الطمـــاطم فـــي الإناء الأصفر والعصافير نصف النيئة. نصـــف المســـلوقة فـــي الانـــاء الاخضر و..

شفيق: بحثت في كل مكان ولم اعثر عليه. هاتيه.. هيا أسرعي. بحثت القطة عـن اللحم.. هيا.. هيا.. تحركي.. أنا أراك من شق الباب.

شفيقة: شفيق هناك ما ينبغي أن تعرفه ونتفاهم بصدده..

شفيق: بطني فارغ. وحين يكون بطني فارغا. لا أستطيع التفـــاهم مـــع أحـــد لا استطيع التفاهم حتى مع نفسي.. لم تعثر القطة على اللحم... هجمت..

شفيقة: الامر يتعلق بجدك.. يا..

شفيق: مات؟ وافرحتاه. ولكن اسمعي (يفتح الباب يطل برأسه) ثمة شرط. لا اريد في البيت ضجيجا ولا عويلا. ومجلس الفاتحة، ان كان لابد منه، يقام في الجامع، او على قارعة الطريق. فانا مقبل على الامتحان.

شفيقة: الامتحان؟ اليوم؟ اليوم هو الجمعة وليس من المعتاد ان..

شفيق: وما شأني انا بالمعتاد. من قال لك اني اسير وفق المعتاد. ان مهمتي.. ان الغي المعتاد. والقي به في مزبلة التاريخ..

شفيقة: افعل به ما نشاء. والق به.. حيثما تريد.. فقط دعنا نتفاهم حول..

شفيق: لا تفاهم. الفاتحة في الخارج. أو تلغى والبيت لا يخل بهدوئه من أحـــد.. وها أنا اصدر أمري بذلك (يعلق على الباب ورقة. يكتـب عليـها بخـط رديء واخطاء واضحة)- السيد شفيق يخوظ امتحـان مـهم (الأخطـاء مقصودة) الظوظاء ممنوع.. الظجيج ممنوع- هذا- أمري. ومن يخـالف أمري انهي أمره (كذا)

شفيقة: (تضرب كفا بكف) طفل غرير ركبه شيطان العناد (يهم بالدخول.. تمسـك به) شفيق ليس الأمر كما تتصور. اسمعني يا ولدي ارجوك.

شفيق: اسمعك؟ اسمع من؟ اسمعك انت ام اسمع صراخ بطني ونبـاح جوعـي؟ أسمعك أنت ام اسمع نداء واجبي وتقريع معلمـي الـذي دسـت علـى اوامره.

شفيقة: انا؟.. انا دست على..

شفيق: ودست علي ايضا. انظري.. انظري النافذة شاهدة على ما أقـول. آه. يـا الهي.. ماذا اقول له إذ يأتي ويراها على حالها.

أسرعي. اسرعي.. هاتي قطعة خشب.. صفيحة حديد.. اي شـيء.. أي شيء.

شفيقة: بسعة النافذة؟ من أين ياشفيق.. من أين؟

شفيق: من باطن الارض. من علياء السماء. ام تريدينه يسقطني في الامتحان ويقضي على مستقبلي. (يقلب المائدة ويشرع بقلع قوائمها، هائجا)

شفيقة: (تحاول منعه) آه.. انها المائدة الوحيدة في البيت.. المائد.. ة.. الو.. حيد.. ة..

شفيق: (يدفعها يواصل فلع المسامير باسنانه. المسامير طويلة ويعاني صعوبة بالغة. يتوجع يصرخ) آخ.. أسناني.ز أخ (يسيل الدم على شفتيه) هاتي المقلاع. الا ترين اسناني تتكسر... الا ترين شفاهي تتمزق.. اخ... اخ...

شفيقة: جنون.. ما تفعله بنفسك وبي جنون مطبق. صبرا... صبرا (تأتي له من المطبخ بالمقلاع والمطرقة. بسرعة) خذ.. خذ... آه... ما كل هذه الدماء دعني امسح شفتيك.. دعني اعقم جروحك..

شفيق: (يلطع شفتيه) احملي معي.. ساعديني.. ناوليني المطرقة (يدق لوح الخشب على النافذة. يسدها تماما. يتاكد من قوته وسلامته) هكذا. لا عين فضولي ولا انفاس متطفل ولا حتى شعاع متسلل. الجو المثالي للدرس والمذاكرة وتحقيق افضل النتائج. في الامتحان. والان بقيت الستارة. اين الستارة.. هاتي الستارة..

شفيقة: وهل تركت، في النافذة، منفذا للنور؟ لقد اقمت في البيت ليلا اشد سوادا من الليل. فما حاجتك إلى الستارة.؟

شفيق: الستارة تعلق هنا (يقفز إلى عمق المسرح) وتمتد إلى هنا (يرتد إلى مقدمة المسرح) ستارة طويلة عريضة تعزلنا عن البيت تماما. هيا.. هيا تحركي.. ولا تنسي الوسائد والافرشة والسجاجيد ومستلزمات الشاي.

وكل ما يليق بمقام معلمي الجليل. ويلين قبله علي... (شفيقة لا تتحرك) مالك واجمه؟ ماذا بك؟ حزينة؟ حزينة على العجوز الذي رحل مع سعاله وشتائمه..

شفيقة: جدك... يا شفيق.. لم يرحل.

شفيق: (مصعوقا) ها.. ماالذي تقولين..

شفيقة: ذلك ما اريد اخبارك به. منذ عدت من عنده وانت لا تترك لي فرصة.

شفيق: ولكن.. كيف؟ كيف...

شفيقة: لقد رأف المولى الكريم بحاله و..

شفيق: وماذا؟ ما المطلوب مني ان افعل بهذه المناسبة السارة جدا. مناسبة خروج جدي المبجل من الكفن...

شفيقة: عليك ان تركن إلى الهدوء. وتقلع عن كل ما يسيء اليه او يقلق راحته اذ يعود إلى البيت.

شفيق: البيت؟ هنا؟ معي تحت سقف واحد؟ مستحيل. ما تطلبينه مني هو المستحيل بعينه قولي انك تمزحين. قولي انك لا تعنين ما تقولين. قولي انك تكذبين.

شفيقة: اكذب؟ أنا في مقام أمك وتقول لي بكل وقاحة أني اكذب...

شفيق: لعنة الله على أمي وعليك وعلي وعلى الدنيا كلها. أذهبوا به إلى مكان آخر، أي مكان غير هذا البيت.

شفيقة: هذا البيت بيته هو. وليس للإنسان غير بيته يأويه ويحن عليه.

شفيق: (يلطم وجهه) مرة أخرى أخيب الأمل المعقود علي. اسقط في الامتحان واخرج منه مسود الوجه كالغراب (بحدة) اتركوه حيث هو راقد...

شفيقة: لقد مضت عليه ثلاثة اشهر وهو...

شفيق: وماذا يعني؟ أنت ممرضة سابقة، استخدمي نقوذك اطلبي منهم ان يعطوه بضعة أشبار من الأرض يلفظ فوقها أنفاسه..

شفيقة: لا تكن متوحشا إلى هذا الحد. انه جدك يا هذا.. جدك.

شفيق: حتى ولو كان أبي. فانا لا أطيقه. لا اطيق وجوده. لا اطيق سعاله.

شفيقة: (بنبرة غريبة) لا. لا.. اني اكتشف فيك امرا غريبا.. لا افهمه ولا اطمئن اليه (كمن تحدث نفسها) لا.. لا يمكن ان يوجد في الكون كله مخلوق تسكنه الكراهية إلى هذا الحد المريع...

شفيق: ها انت ذي ترين...

شفيقة: لا يمكن.. لا اصدق. دائما للكراهية حدود تتوقف عندها وتتراجع.. آه. استغفر ربك يا ولدي. وطهر روحك. فقد بت أخاف عليك. ان كراهية من هذا النوع. تدمر صاحبها قبل غيره.

شفيق: (بنزق) أنا هكذا.. ربي خلقني هكذا..

شفيقة: حاشاه.. الرب ارحم من أن يحشو أحدا بهذا القدر الشنيع من الكراهية. وأنت. أنت نفسك. لم تكن هكذا. فماذا جرى لك؟ ما الذي غيرك وجعل قلبك اسود إلى هذا الحد الفظيع.. إزاء أمك أولا.. ثم.. إزاء أبيك.. ألان إزاء جدك.. حتى جدك.. هذا الملاك الطيب المسالم الذي لم يسيء إلى مخلوق.. بات يكتوي بنار كراهيتك.

شفيق: لانه يكرهني. كلهم يكرهونني. وانا من يكرهني قدر شعرة، اكرهه ملء السماء والأرض..

شفيقة: لا احد يكرهك. صدقني أنها أوهامك التي تمتلئ بها نفسك، تصور لك الامر على هذا النحو المقلوب. والا هل سمعت بأم تكره فلذة كبدها او أب لا يفنى في حب ابنه الوحيد البكر.

شفيق: لا تزال كلمات أبي، التي كانت تنزل على رأسي مطارق، صباح مساء. ترن في أذني. يرتج لها كياني. ياولد يا شاذ.. يا ولد يا وغد.. انت اكلت رأس أمك. واذ نبذني ورحل دون ان ادري إلى اين.. راح جدي هذه المرة، يكرر النغمة نفسها... هذا الولد يأكل رأسي.. هذا الولد...

شفيقة: ولدي. ولدي. لا تدع روحك الغضة الطفلة.. تمتليء بما يقال في لحظات انفعال اقوى من طاقة الانسان على التحمل... لا تدعه يترسب في نفسك حتى يستحيل حقدا متورما. يسوقك إلى ما تندم عليه طيلة حياتك.

شفيق: إلى جهنم... كلهم إلى جهنم.. انا لا احب ايا منهم..

شفيقة: اياك يا ولدي.. اياك. ان تسيء إلى أي منهم.. اذا اردت ان احبك.

شفيق: انت الأخرى تكرهينني.. انت الأخرى.. لا تحبينني...

شفيقة: انا؟ انا لو كان لي ولد من لحمي ودمي لما احببته اكثر منك. ولكنك ولد غر لا تعرف ما هو الحب.. ولا تدرك معناه.

شفيق: اذا كنت تحبينني حقا.. لا تعيدي العجوز إلى البيت.. لا تنحري في سبيله مستقبلي... انا لا اطيقه.. لا اطيقه... يا خالتي...

شفيقة: انتقل إلى غرفتي في الطابق العلوي. انها معزولة.. و..

شفيق: مجنونة؟ قطعا انت مجنونة...

شفيقة: مجنونة؟ انا مجنونة:

شفيق: لابد ان تكوني كذلك. والا لما جرؤت ان تطلبي مني ترك غرفتي لغيري.

شفيقة: الغرفة غرفته، مثلما البيت كله بيته. بناه بيده حجرا حجرا. قبلما يكون لك وجود. وان مكوثك فيها فترة رقاده، في المستشفى، لا يعني انها صارت... غرفتك.

شفيق: لقد اعددتها اعدادا خاصا بي ولي. امضيت شهرين في تجهيزها بـــاحدث متطلبات الدرس والتهيؤ للامتحان.

شفيقة: في بحر دقائق احملها وانقلها لك... بنفسي.

شفيق: احمليه وانقليه هو. بنفسك او بالاستعانة بالابالسة. اما انـــا فلـــن أتـــرك الغرفة.

شفيقة: مرة واحدة. كن معقولا مع نفسك. أنى لرجل مريض. مقعد.. ان.. يصعـد وينزل هذا السلم.

شفيق: ليصعد ولا ينزل. يدفن هناك. او ينزل في تابوت، محمولا على الاكتـــاف. وانت! اما انت اخ.. لو لم يكن موعد امتحاني.. اليـــوم. (يندفـــع إلـــى الغرفة)

شفيقة: (تتعلق به) شفيق ولدي..

شفيق: (يدفعها) كفاك.. كفاك قتلا لوقتي. المعلم في طريقه إلى. لا تحملينى علـــى كراهيتك.. انت تعرفين جيدا. كيف اعامل من اكره (يتوقف قبلما يدخـــل) واسمعي جيدا. اذا ما حاول احد انتهاك حرمة غرفتـــي اقتلـــه. بندقيـــة الصيد في الداخل.. محشوة ولا اقول اكثر (يدخل. يعلو صوته. مـــرددا)) بحثت القطة عن اللحم.. لم تعثر القطة على اللحم..

شفيقة: (تتهالك على نفسها في حالة شديدة من الاعياء والعجز وقلـــة الحيلـــة) والعمل؟ ما العمل يا الهي؟ ماذا افعل الان؟ انه ولد متـــهور. لا يتـــورع عن ارتكاب أي شيء.؟ اه. والجد.. الانسان الوحيد الذي بقى لـــي فـــي هذه الدنيا القاسية.. اين اذهب به..؟ اين؟.. اين؟

شفيق: (يقطع قراءته. يطل برأسه) اما آن لك ان تقدمي لي طعـــامي.. اتنويـــن قتلي من الجوع؟

شفيقة: (تنهض. تتوجه نحو المطبخ. تتوقف عند السلم. تتأمل الفسحة الكائنة تحته.. تتريث عندها. تقيسها بعينيها) هنا؟ هل يمكن؟ (عاجزة عن اتخاذ قرار) اه.. ربي عونك. (تدلف إلى المطبخ. يعود شفيق إلى ترديد درسه. تخرج شفيقة بالطعام. تتوقف ثانية عند المكان) لا حيلة لي. وليغفر لي الله...

شفيق: (يفتح الباب. يخطف عصفورة. يلتهما)

انصرفي إلى تهيئة مكان الدرس.

شفيقة: (تدخل الغرفة. يحاول منعها. تدفعه)

آخذ السرير.. سرير جدك.

شفيق: خذيه. كلما وقع عليه نظري، تخيلته راقدا فوقه. تعالي خذيه. انا.. لا المسه (ينسحب)

شفيقة: (تفتح الباب إلى آخره. الغرفة معتمة لا ينيرها سوى ضوء اصفر شاحب. تسحب السرير وهو عار. بعتلات صغيرة. يسرع شفيق باغلاق الباب.. ويعلو صوته مجددا بين المضغ والقراءة. شفيقة تدفع السرير تحت السلم تكنس الارض. ترشها ببعض السوائل المطهرة. تأتي بالافرشة من الطابق العلوي. ترتبها. تطمئن إلى عملها. ترنو اليه بحزن وأسى الشخص العاجز عن تحقق ما هو افضل) بصورة مؤقتة حسب.. اليوم فقط.. لن ادعه راقدا هنا.. اكثر من اليوم. سأسترد له غرفته مهما حدث..

شفيق: (يفتح الباب. يناولها صينية الطعام) والمكان. هل نسيت مكان الدرس؟

شفيقة: لا.. لا. الان (تأخذ اواني الطعام إلى المطبخ.. ثم تصعد إلى الطابق العلوي بينما ينصرف شفيق إلى ترديد محفوظته. بعد فترة وجيزة تنزل

شفيقة.. بالافرشة والسجاجيد والوساند.. تفرشها، ترتبها تصعد وتــنزل بضع مرات حتى تتشكل هيئة ومستلزمات غرفة مصغــرة، غريبــة- لا تمت إلى زمن المسرحية بصلة- يترك تصورهــا وتجســيدها للمخــرج ومصمم الديكور- تتأمل المكان، لنفسها) ترى مـــا ســر الولـــع بـــهذه الاشياء الغريبة؟ (تهز كتفها غير حافلة صوت توقف سيارة. تسرع نحو الباب الخارجي تفتحه).

شفيق: (يطل برأسه) سيدي المعلم.؟

شفيقة: لا انها سيارة المستشفى (شفيق يختفي غالقا الباب باستياء).

[يدخل رجلان، بملابس المستشفى، يسندان الجد. الذي يتنفس بارتيــاح اول ما يدخل. ثم يظهر إنقباض شديد على وجهه مشوبا بالدهشة والامتعاض. اذ يدير نظراته في ارجاء البيت. تسرع شفيقة، تكشف الغطاء عن السرير].

الاول: البيت خانق جدا اما من نافذة؟ فتحه..؟

شفيقة: (متهربة من سؤاله) على مهلكما.. على مهلكما.. هنا.

الرجلان: (معا في ان واحد) تحت السلم؟

(يتوقفان باستنكار شديد)

شفيقة: (باحساس كبير بالحرج وانعدام الحيلة)

لكي يكون قريبا من المغاسل و.. و(الرجلان لا يتحركان) ارجوكمـــا.. لا تدعاه يتعب من الوقوف على قدميه.

الاول: سيدتي، ليس من حقي التدخل، ولكن هل ترين هذا المكـــان لائقــا بمقـــام الرجل.. (صوت شفيق يتوقف من داخل الغرفة)

الثاني: واي رجل. رجل بمعنى الكلمة. من اعظم بنائي البلد وامهرهم. أفنى عمره يبني البيوت للناس. وفي النهاية لا يجد لنفسه غير هذا المكان.. (شفيق يستمع من شق الباب).

شفيقة: بصورة مؤقتة حسب. غرفته شغلها حفيده وهو مقبل على امتحان خاص يتوقف عليه مصيره، كما يقول، والغرفة الاخرى في الطابق العلوي وليست ثمة مغاسل ولا حمام..

الاول: كان ينبغي اخلاء غرفته. واسكان الولد هناك.

شفيقة: حاولت. يشهد الله اني بذلت المستحيل (بصوت خافت) ولكن الولد في عناد البغل وتهور الشيطان (ثم بشفقة).. انه يتيم. توفيت امه قبل بضع سنوات. وابوه سافر إلى الخارج. ولم يعد له احد يأويه ويعتني به. ارجوكما.. ساعداني.. تعال يا عمي.. تعال يا أبي.. ولا تغضب على ارجوك.. لا تحرمني من رضاك.. (الجد.. تنفتح اساريره بعض الشيء.. يمددونه برفق على السرير. شفيقة تسحب الغطاء إلى منتصفه)

الثاني: (باستياء واضح) اما كان المستشفى اكرم لك؟ امن اجل هذا المكان اصررت كالطفل، على العودة إلى البيت.

الاول: يبقى البيت، مهما كانت ظروفه، بالنسبة للانسان. مثل ثدي الام للطفل الرضيع لا يأنس ولا يجد راحته ألا به وفيه.. (شفيقة تشهق مختنقة بالدموع) عفوا سيدتي.. لم اقصد إيذاءك.. فالعم سلمان بمثابة الأب الحقيقي لي، عملت معه، في معظم المباني التي أقامها، وكان نعم الأب الموجه. ويعز علي ان أراه.. ملقى.. هكذا.. تحت السلم.

شفيقة: (تكفكف دموعها) ومن لا يعز عليه، حتى أحجار البيت يعز عليها ان ترى سيدها.. ملقى هنا. الا ذلك الحجر الذي احتل غرفته آه.. فقئت عيناك يا شفيقة (تقبل نحوه) فقئت عيناك يا شفيقة. كيف حالـــه الان؟ احســن؟ اهو.. احسن؟

الثاني: كان الله في عونه. ان خمسين عاما من الكد والشقاء تهد الجبل. ومع هذا فقد تحسنت حاله بعض الشيء، بفضل رعايـة الدكتـور (يشـير إلـى صاحبه) وعنايته. نبضه انتظم إلى حد ما ولكنه مــا زال يعـاني مـن الأرق.

الأول: بسبب أوجاع مفاصله (يعطيها قنينة دواء صغيرة) وقت الحاجة الماســة، يمكن إعطاؤه بضع قطرات منه.. تسلمه إلى نوم مريح.. (شفيقة تخفـي القنينة تحت وسادته) ولتكن وجبات طعامــه خفيفــة. حســاء وبعـض السوائل، عصير البرتقال أن أمكن. وإذا استعصت عليه إفرازاته وهــو أمر متوقع، في حاله، استعملي الحقنة. لا تدعـي بطنــه ينتفــخ.. ولا حرارته ترتفع.

الثاني: وفي حالة حدوث أية مضاعفات. لا سمح الله. اتصلي بنا في المستشـفى فاليوم نوبة فاليوم نوبة خفارتنا ونحن في الخدمة.. وقيد الطلب..

الأول: (يتحسس حرارة الجد) هو ألان نائم.. لقد سقيته بضـع قطـرات.. تجنبـا لصعوبات الطريق..لا بأس عليه دعيه حتى يصحو من تلقاء نفسه.

شفيقة: وفقكما الله، كليكما.. بارك الله فيكما (يخرجان) في أمان الله.. رافقتكمـا السلامة.. اخوي الكريمين.. (تسد الباب خلفهما. تعود إلى الجد تسـحب عليه الغطاء..) نوم العافية.. يا جدي الحبيب..

شفيق: (مندفعا من الغرفة) بماذا كان الرجلان يهذيان..؟

شفيقة: هش.. هش.. جدك نائم.

شفيق: نائم؟ هل سقيته الدواء..؟

شفيقة: أي دواء؟

شفيق: سمعت أحدهما يتحدث عن دواء منوم.. شيء سحري يغرقه في النوم.

شفيقة: وما شأنك انت؟ ليس هذا من شأنك...

شفيق: اسقيه منه، يا خالتي، وكلما صحا.. اسقيه المزيد منه.

شفيقة: شفيق لا تتدخل فيما لا يعنيك. رح إلى دروسك وامتحانك.

شفيق: ولكن يجب ان يظل نائما ومن غير الدواء يصحو. وأذ يصحـــو.. يســعل ويشتمني.

شفيقة: وهل عرف لسانه العفيف السب او الشتم يوما؟ لماذا تفتري على الرجـــل (كمن تخاطب نفسها) ليته يصحو.. وليسعل ويشتم أيضا ما شاء. علـــى الأقل يشعرني بأنه حي. ولكـــن.. وا.. أســفاه.. لقــد اثقــل المــرض لسانه..ولم يعد قادرا على تحريكه.. اه (ترفع يديها إلى السماء) ربـــي ارحمه.. اشفه يا ربي. اشفه.

شفيق: بل خذه ياربي خذه. إلى جوارك.. لا تستجب لدعائها واســـتجب لدعـــائي انا.. فانا الذي أحترق في نيران شتائمه وسعاله..

شفيقة: (تسحبه بعيدا عن الجد) تعال.. تعال. الق نظرة علـــى المكـــان المتحفـــي الذي طلبته.. ها؟.. هل يعجبك؟

شفيق: والجدار؟ أين الجدار؟.

شفيقة: أي جدار؟.

شفيق: الجدار الفاصل.

شفيقة: لا اعرف عن أي شيء تتكلم. فانت

شفيق: الستارة. الستارة التي تعزلنا عن البيت. مثل الجدار الفاصل. هل نسيت؟

شفيقة: شفيق. ليس في البيت ستارة بهذا الطول.

شفيق: شفيقة. اهذا بالوقت المناسب للمزاح.؟

شفيقة: انا لا امزح ليس في البيت حتى قطعة قماش تصلح لأن تكون..

شفيق: اشتري من السوق. اشحذي من الجيران. مزقي ملابسك.. واصنعي منها الستارة المطلوبة.. هيا.. هيا.. لا تدعيني افقد اعصابي.

شفيقة: لا تصرخ.. لا تصرخ (تشير بقلق إلى الجد) سأذهب إلى السوق واشتري.. امري لله (تتجه نحو الباب. تتوقف. تلقي نظرة على الجد.. تخاطب نفسها..) لا.. لا ينبغي ان افارقه. فقد يصحو.. ويطلبني في امر ما..

شفيق: هيا؟ ماذا هناك؟ هل عدلت عن عزمك؟

شفيقة: (تشير إلى الطابق العلوي) سأنزع ستائر النوافذ هناك.. واخيطها لك..

شفيق: أسرعي فقط اسرعي. قبلما يصل سيدي المعلم (يدفعها نحو السلم) عسالك تنزعين جلدك وتخيطينه (يعود إلى الغرفة. يصدر من الجد صوت اشبه بالحشرجة. يتوقف بنزق) مثلما توقعت ها هو قد صحا واخذ يشتمني. يسعل ويشتمني. هو ووم (يخرج له لسانه. يدلف الغرفة. يعلو صوته بمحفوظته المعهودة. مصحوبا باللطم والضرب. يتوقف فجأة اذ يعلو صوت ماكنة الخياطة من الطابق العلوي. يخرج بسرعة وبعصبية شديدة) شفيقة.. شفيقة.. هل تهدمين الدار فوق رأسي.؟ (يركل السلم) ما كل هذا الضجيج؟ ما كل هذا الصخب لماذا لا تدعينني ادرس. لماذا لماذا..؟

شفيقة: حسنا.. حسنا (يخفت الصوت) ادخل الغرفة.. جدك نائم.. لا تصرخ.

شفيق: جدي.. جدي. لا يهمك من الدنيا كلها غير جدي (يعود إلى الغرفة) ليست جدي يموت.. يموت ان شاء الله (يوجه حركة قبيحة إلى الجد وهو يدلف الغرفة يعلو صوته من جديد) بحثت القطة عن اللحم. بحث القط عن اللحمة؟ ها؟ ماذا قلت؟ بحث القط عن اللحمة؟ (يتوقف) لم لا؟ انه تغيير. انه تجديد.. انه تطوير للدرس. اذا كانت القطة تبحث عن اللحم فمن حق القط ان يبحث عن اللحمة. الله؟ الله؟ وعلى اساس ذلك وفي ضوئه يمكن تغيير الدرس كله، تجديده وتطويره. على هذا النحو. بحثت القطة عن اللحم.. بحث القط عن اللحمة لم تعثر القطة على اللحم.. لم يعثر القط على اللحمة هجمت القطة على الفأر.. هجم القط على الفأرة. الله.. الله! رائع. رائع! (يخرج بفرح طائح) خالتي شفيقة.. خالتي شفيقة..

شفيقة: ماذا؟ هناك؟ لماذا لا تدع جدك يرتاح بعض الوقت؟

شفيق: تعالي هنئيني. تعالي قبليني.. (شفيقة تنزل وبيدها الستارة) لقد طورت الدرس يا خالتي.. لقد اضفت عليه اضافات مذهلة. من عندي.. وحدي..

شفيقة: (تحاول اسكاته) جيد.. جيد.. فقط لا تصرخ..

شفيق: لقد حولت القطة إلى القط.. واللحم إلى اللحمة. والفأر. يا خالة حتى الفأر.. حولته إلى فأرة. ما رأيك بهذا الابداع العظيم.؟

شفيقة: (تنظر اليه باشفاق) حسن.. حسن.. لو.. لو ترتاح يا ولدي..

شفيق: لا. لا. لن ارتاح.. ولن يستقر لي بال.. حتى اعرف رأي سيدي المعلم بهذه الاضافة الرائعة (يقترب منها) ترى كيف سيكون رد فعله.؟

شفيقة: (وهي منصرفة إلى تعليق الستارة) مشجعا.. كل معلم يشجع تلاميذه..

شفيق: (منتكسا) اخشى ان لا يكون كذلك.. فانا لم استأذنه.

شفيقة: (بدهشة) وهل انت بحاجة إلى اذن لكي..

شفيق: وإلى امر ايضا. لا بد ان يأمرني هو اولا..

شفيقة: عجيب!! ما اغرب ما اسمع..

شفيق: ثم هو جديد. لا اعرف مزاجه.. ولا ادري اهو من النوع الذي يشجع.. المبادرات الشخصية ام يكبتها ويمنعها..

شفيقة: ومعلمك السابق، ذلك الرجل القميء الذي كان تلميذا معك وصار معلما لك.. ماذا جرى له؟ لماذا استبدلوه..؟

شفيق: لقد صار مفتشا.. (بحزن شديد) كلهم يصعدون على اكتافي. وأنا وحدي باق حيث انا.. (يحبس دموعه ويفر إلى الغرفة)

شفيقة: لا تبك.. يا ولدي.. لا تبك. (تسرع خلفه مواسية)

شفيق: (يغلق الباب بحدة) اغربي عني.. لا اريد احدا يشفق علي.. لا اريد احدا يشفق علي.. لا اريد احدا يطلع على ضعفي (يستعيد حماسه بسرعة.. ويردد محفوظته بصوت عال. مصحوبا بالضرب واللطم.. على نحو اقوى واشد).

شفيقة: (تجمد دهشة لفترة وجيزة) ما اغرب اطواره! (ثم) ولد غريب الاطوار حقا.. (تعود إلى عملها. تعلق الستارة على جسر يسهل تحريكها. تكومها في عمق المسرح. تتجه نحو الجد. تقف على رأسه هنيهة..) نائم؟ اما زلت نائما؟ اما زلت نائما. (تجلس على حافة السرير) اما آن لك ان تنهض؟ تأكل شيئا.. تشرب شيئا (صمت)لو.. لو تفتح عينيك.. الا.. تسمعني.. عمي.. هل انت بخير.. طمئنني يا عمي.. (يفتح الجد عينيه بتثاقل) اه.. واخيرا حمدا لله.. حمدا لله.. (تقبله) لقد أعددت لي

روحي التي كادت تقضي عليها مخاوفي وهواجسي. اما جعت؟ هل اعـد لك شيئا تأكله.. (الجد بصعوبة بالغة يومئ إيجابا، بحنكة.. تشهق بفرح غامر) الآن.. الآن.. أسخن. لك الحساء انه جاهز.. لحظة يـا جـدي.. لحظة واحدة (تسرع باخراج قدر من الثلاجة. تدخل المطبخ.. تعود بعـد هنيهة. بالحساء في اناء عميق) لا.. لا.. تقلق.. لا تكلف نفسك ادنـى مشقة.. انا.. انا ابنتك أطعمك (تجلس على مقربة منه تطعمه بحمـاس ونشوة) كل.. كل. مشافى. ان شاء الله.. مشـافى.. (تحضـر منشـفة. تمسح أطراف شفتيه) شبعت؟ كما تشاء يا أبي الحنون.. كما تشاء.. يـا أبى الحنون.. كما تشاء.. (الجد يشير إشارة خاصة) عطشت ماء؟ أتريد ماء؟ من عيوني.. أسقيك ماء عيوني.. (تسقيه) لا. لا تشرب كثـيرا.. لا تملأ معدتك بالماء.. سآتيك بالعصير.. عصير برتقال طازج.. لقد أوصى الطبيب لك بعصير البرتقال. ها.. (تعامله كما لو كان طفـلا) البرتقـال. حلو. لذيذ.. طيب (الجد يحاول ان يبتسم.. تبتسم له هي الأخرى. تـهرع إلى المطبخ.. الجد يتبعها بنظراته. تخرج حائرة. تفتح الثلاجة.. تبحـث فيها) يا الهي.. أين وضعت كيس البرتقال لقد اشتريته صباح اليوم. انـا متاكدة. اه.. لقد تركته عند البقال. لم استطع حمله مع سـلة الطمـاطم الكبيرة.. الان.. الان (الجد يحاول ان يقول لها.. ان لا حاجـة) لا..لا.. المحل قريب.. بضع دقائق حسب.. أعود إليك طائرة. (تعدل له الوسادة. تسحب الغطاء إلى منتصفه..) ولكن لا تنم.. يا ابي.. أرجوك.. انتظرنـي ولا تنم.. لن أتأخر عليك (تقبله من جبينه. تسرع بالخروج. يرنو خلفها بعيون ملؤها الحنان).

شفيق: (يواصل قراءته وممارسة طقوسه) اويلاخ على الفأر اويلاخ على الفأرة (يصرخ) لا الفأرة لا. يجب ان التزم بحدود الدرس ولا اخترقها قبلما أنال موافقته. (يهدأ) من جديد.. يا شفيق هيا.. من جديد. بحثت القطة عن اللحم.. بحث القطة عن اللحمة.. اه.. لا.. لا.. أي شيطان خبيث. يقحم هذا الكلام السخيف، السافل المنحط. على مفردات درسي المتسلسلة المتزنة المنسجمة مثل حبات العقد.. فيخل باتزانها وانسجامها..؟ أيكون كل ذلك بسبب ذلك التعب؟ لا..لا.. التعب لا يملك كل هذا الخبث ولا هذه القدرة الخارقة في التسلل إلى فقرات الدرس.. ثم. ثم شفيق لا يتعب.. شفيق لا يضعف.. شفيق لا يعترف بالتعب ولا يقر بالضعف. هيا.. هيا يا شفيق اعد الكرة..

الجد: (يسعل بضعف.. يقاوم سعاله باذلا أقصى درجات الجهد. يمد يده نحو كأس الماء. تعجز أنامله عن الإمساك بها. تسقط.. على الأرض)

شفيق: (يقطع قراءته يقفز خارجا، يصرخ) شفيقة.. شفيقة..

الجد: (يشير بصعوبة بالغة إلى أنها خرجت)

شفيق: خرجت؟ اذن فأنت الذي تحدث كل هذه الضوضاء

الجد: (إشارات خرساء. يبذل المزيد من الجهد لكبت سعاله)

شفيق: لقد اخذت تسعل. لا تكذب. لقد سمعتك تسعل وتشتمني. انا اعرف انك تكرهني ومنذ زمن طويل.. منذ ماتت امي. ضاعفت كراهيتك وبغضاؤك لي بعدما رحل ابي..

الجد: (يحدق فيه.. كاتما سعاله، الذي يحاصره والذي يفلت منه بالرغم من الجهد الكبير الذي يبذله)

شفيق: أرأيت؟ هل سمعت سعالك؟ ان سعالك هو الشيطان الخبيث.. الذي تطلقه.. ليفسد علي دروسي.. ويربك ذاكرتي..

الجد: (يشير اشارات خرساء إلى الكأس الساقطة.. المهشمة)

شفيق: ماء؟ هل تريد الماء؟ على العين والرأس؟ يا جدي العزبز... سأسقيك روح الحياة.. اكسير الحياة (يخطف قنينة الدواء من تحت الوسادة.. الجد يدفعه عنه بوهن شديد شفيق يحاول فتح فمه عنوة. الجد يقاوم) حصان. فكا حصان. خذ اشرب. هيا اشرب.. اشرب ونم نومك الابدي.. هيا اشرب.. اشرب ونم(يفرغ القنينة في حلقه) والان.. حاول ان تسعل.. اسعل واشتمني ما شئت. ان استطعت. قسما برب الكائنات اسحق القنينة نفسها.. واملا حلقك بالشظايا.. (يسحب عليه الغطاء)

(يعود إلى الغرفة تاركا الجد، يتلوى بعض الوقت، ويتعذب ثم يخمد في مكانه بلا حراك..عدا صدره الذي يعلو ويهبط... بضعف شديد. بينما يعلو صوت شفيق، ويغدو صراخا مشروخا. وعويلا مفتتا. مصحوبا كالعادة باللطم والضرب مثيرا المزيد من الضجر والملل بحكم الرتابة وانعدام التنوع والتلوين.. حتى بفقد الجمهور حياديته ازاءه. ويغادر الصالة مع هبوط الظلام، على المسرح، ببطء.

الفصل الثاني

[مشهد الفصل الاول نفسه. بعد بضع ساعات من وقوع احداثه. كل شـــيء على حاله. الجد ممد في مكانه، مغطى. الوقت قبيل الغروب. الظلام قـــد زحـــف نوعا ما. مع ان الشمس في الخارج لم نغب تماما.. اذ ما تزال خطوط من أشعتها تتسلل عبر الشقوق. شفيق. قد خفت صوته، بعض الشـــيء، وان لـــم ينقطـــع.. واستحال لهاثا ممطوطا. جراء التعب والإنهاك. شفيقة تنزل من الطابق العلـــوي. وهي بهيئة من قضت قيلولة، غير مريحة. تتوجه نحو الجد بقلق اذ يختض بشكل غير طبيعي..]

شفيقة: يا الهي (تكشف عن وجهه. تصعق) ما هذا؟ ما كل هذا العرق الذي تسبح فيه (تمسح عرقه. تجس نبضه. تتسمع إلى دقات قلبه بـــاضطراب) لا. لا. أن أمرا غريبا يجري له. أيكون بسبب بضع ملاعق الحساء الـــذي.. لا.. لا. الحساء لا يوصله إلى هذه الحالة الغريبة.. آه.. والعمل (تغـــدو في حركة دائبة. تضع كمادات ماء بارد. تحركه. تدلكـــه. تـــهجم علـــى التلفون) آه.. لا الآن. أنا في أمس الحاجة إليك.. تخرس كقطعة صخـــر (تلقى السماعة يائسة) اللهم انجدني ربي أرشدني ماذا افعـــل (تطـــرق الباب على شفيق) شفيق تعال. تعال انظر ماذا حـــدث لجـــدك (يخـــرج شفيق) حين تركته كان في احسن حال. وإذ عدت ووجدته قـــد ســـحب

الغطاء على وجهه.. قلت لنفسي.. لقد نام.. لادعه يرتاح.. فرحت واستلقيت فوق سريري.. والان انظر.. انظر..

شفيق: انه في اتم الصحة والعافية. دعيه.. دعيه على حاله..

شفيقة: ادعه على حاله؟ ما الذي تقوله أأدعه يغرق في عرقه الذي يسيح من كل إنحاء جسمه أأدعه يحترق في حرارته التي غدت كحرارة تنور مشتعل؟. انه لم يعد يقوى حتى على التنفس.. ويلتاه.. ويلتاه.. أسرع يا شفيق. أسرع.. هات له طبيبا..

شفيق: (جامدا. ينظر أليها بدهشة) أراك في غاية القلق والخوف عليه. أتحبينه إلى هذا الحد..؟ كنت أحسبك تشفقين عليه وحسب.

شفيقة: (باكية) احبه.. احبه وحسب.؟ أنا افديه بروحي ومهجتي وكل ما املك.. انه أبو زوجي وفي مقام أبي وأمي كذلك.. وباني هذا البيت الأمين. الذي يقيني أهوال التشرد والفساد.. كيف لا احبه.. كيف لا افنى نفسي في سبيله.. شفيق أسرع.. أرجوك.. أسرع.. ان حالته تبدو خطيرة.

شفيقة: سأسرع.. سأسرع فعلا.. ولكن إلى غرفتي ودروسي.. واياك ان تقلقي راحتي

شفيق: (تعترض طريقه.تمسك به) لا يمكن يا شفيق.. لا يمكن.. أية راحة تلك التي تتحدث عنها.؟ لن تكون في البيت كله راحة.. إذا ما حدث له مكروه..

شفيق: أنا لن تتحقق راحتي ألا إذا حدث له مكروه.. فدعيني ولا تحميلني على خنقك وخنقه بيدي هاتين..

شفيقة: ويحك يا شفيق.. يا تعس.. انت لا تدرك معنى ما تقول. لا تدركه ولا تعيه.

شفيق: بل ادرك واعي جيدا.. واعني كل حرف قلته.. واذا لم يحقق لي القدر ما اطمح أليه.. فسأحققه بنفسي، ذات يوم (يدلف إلى الغرفة ويغلق الباب)

شفيقة: وحش. ان في داخل هذا الغلام وحشا.. وحشا حقيقيا (تنتفض) اه.. والجد.. لا بد من أحد يساعدني. ماذا بوسعي ان افعل وحدي؟ ولكن إلى من. أتوجه.. إلى من..؟ (تفتح الباب الخارجي. تهم بالخروج ولكنها تعود بسرعة) لن اطمئن على تركه ثانية واحدة على هذه الحال (تقبل نحوه تتحسس أنحاء مختلفة من جسمه) كأن جسمه يتخشب. آه وبطنه.... بطنه انتفخ. غدا مثل الطبل.. لماذا أيها العزيز..؟ ماذا جرى لك أيها الحبيب (تكشف بين ساقيه) يابس. ملابسه يابسة. المنام يابس.. لم تخرج منه قطرة واحدة. أيكون ذلك هو السبب.. فيما يعاني؟ (ساهمة) ربما ربما (تنتفض كمن اهتدت إلى الحقيقة) بل بالتأكيد. بكل تأكيد. (تهرع إلى المطبخ، تعود بالحقنة تجهزها) استدر يا عمي.. استدر..لقد عرفت السبب.. وسهل العلاج.. (تقلبه إلى الجانب) لا..لا تتشنج.. ارتخ.. ارتخ. روحي فداك.. ثوان.. ثوان حسب.. وسيكون كل شيء على ما يرام.. ثوان فقط.. ها قد انتهى.. انتهى كل شيء وستغدو على احسن حال.. مثلما كنت..بل واحسن مما كنت (تضع أناء بين ساقيه. تشرع بتدليك بطنه برقة ومهارة.. تواصل تدليكه لفترة) هيا يا عمي.. هيا يا أبي.. لا تستح... انا ابنتك.. هيا.. افرغ ما في جوفك.. هيا يا عزيزي.. هيا.. يا جدي (تمر فترة مناسبة يظلم خلالها المسرح ثم يضاء وهي لا تزال تواصل تدليك بطنه والتوسل اليه.. ثم يتهلل وجهها وتصرخ بفرح) اه.. لقد اخذ يشخب.. الجد يشخب.. لك الحمد يا ربي.. (الجد يمسد على شعرها بضعف وامتنان بالغ. شفيقة تلثم أنامله)

عيناك الحنونان. عادتا تومضان بالحياة.. تبثان في الامـــل والرجـــاء.. (تحتضنه. تقبله) ليس لي سواك.. يـــا جـــدي الحنـــون. لا.. تـــتركني وحدي.. انت كل من بقي لي في هذه الحياة الظالمة، في هـــذه الحيـــاة الظالمة، في هذه الدنيا القاسية. (تعانقه. ترفع الاناء من بيـــن ســـاقيه) والان سآتيك بالعصير.. عصير برتقال طازج اعددته لك (تســـقيه كـــأس عصير) اشرب بالشفاء العاجل. ان شاء الله (يشرب الجد) كنت اموت لو حدث لك شيء.. ولكن لا.. لا.. لن يحدث لك شيء.. ما دمـــت معـــك. وسأبقى معك.. أخدمك واحميك.. حتى نعود ذلك الرجل الذي كنت. ذلـــك البناء العظيم.. الاسطة الحاذق.. الذي كنت.. تبني للناس بيوت الســـعادة والامان (تمسح له شفتيه. الجد يشير إلى النافذة) ها.. النافذة؟ ســـأفتح الباب. الجو خانق فعلا.. سأفتح الباب على مصراعيه.. ليدخل الـــهواء.. نظيفا.. نقيا (تفتح الباب. الجد يتنفس بارتياح) حاول ان تنام يا جـــدي.. نوم العافية.. النوم يريحك (تسحب الغطاء على منتصفه. تقـــف قربـــه هنيهة) ما اسرع ما تنام كالطفل البريء كاكثر الاطفال براءة (تقبله مـــن جبينه. تنصرف إلى لم الحاجات بحذر وهدوء.. تدلف المطبخ.. تغســـل الاواني والصحون. موسيقى مناسبة، صوت شفيق قد خمد تماما..)

(بعد فترة وجيزة، يدخل رجل. يرتدي (بجامة) مقلمة. على رأسه قلنســـوة مـــن القماش نفسه يخفي عينيه تحت نظارات سوداء. يحمـــل بيـــده حقيبـــة كبيرة سوداء يدخل بسرعة. يتوقف فجأة انه تعبـــان، متوتـــر. منفعـــل لادنى سبب)

المعلم: أنا المعلم. حضرة المعلم الجديد (يتلفت حواليه وأذ لا يجد أحـــدا. تـأخذه الدهشة) ما هذا؟ هل أخطأت في البيت؟ أيمكن ان يحدث أمر كهذا لـــي؟ حتى لي انا معلم الاجيال. الذي ربى وعلم وما زال يربي ويعلم الاجيـــال تلو الاجيال؟

شفيقة: (خارجة من المطبخ، تمسح يديها) آ.. آ.. المعلم حضرة المعلم.. الجديد؟

المعلم: حسن انك عرفتني... يا سيدة شفيقة.

شفيقة: (تلقي بالمنشفة على احد المقاعد. وتقف حاجزة بينه وبين سرير الجـــد) و.. وتعرف. اسمي؟

المعلم: انا لا تخفى علي خافية.. اعرف كل شيء (ثم بحدة) ما الذي يجري هنا؟

شفيقة: (تدفع بظهرها السرير، تحت السلم) لا شيء لا شيء غير طبيعي..

المعلم: وهذا الذي تراه عيناي؟ ام حسبتني اعمى لانني اضع نظارات سوداء؟

شفيقة: و.. ما الذي تراه عيناك يا حضرة المعلم؟

المعلم: ما يدفعني إلى الشك في قواي العقلية ما يحملني على الاعتقاد بـــاني انـــا الاخر يمكن ان اسقط في الغلط، شأني شأن، الناس جميعا.

شفيقة: (بقلق متزايد تدفع السرير بظهرها ابعد) لماذا؟ ماذا هناك.

المعلم: الشمس. هذه الشمس الساطعة التي اشـــعلتها فـــي البيـــت (يشـــير إلـــى المصباح) لماذا؟ الكي تعمي بها العيون؟ عيوني انا اولا..

شفيقة: معاذ الله.. لقد اشتد الظلام.. و..

المعلم: (يغلق مفتاح الضوء) والباب؟ ما هذا الباب الفاغر فاه كشدقي غول.

شفيقة: بسبب الهواء. الهواء المسجون هنا.. قد بات خانقا.. ثقيلا..

المعلم: أغلقيه يا امرأة. أغلقيه قبلما تنهار أعصابي وافقد توازني واتزاني تحركي.. تحركي.. أم بتوجب علي ان افعل كل شيء بنفسي (يسد الباب بقوة)

شفيقة: (يشتد الظلام. تتخبط) لا ارى شيئا.. لو.. عود ثقاب.. لو بصيص نور..

المعلم: معي علبة كبريت (يتوهج عود ثقاب. يفتح الحقيبة) في الحقيقة شموع. تعالي خذي واحدة (تقترب منه.....وفجأة يدفعها) لا. لا. لا بد أني قد فقدت عقلي وان النور الوهاج افقدني رشدي. إذ ادع مخلوقة غريبة.. تطلع على الحقيبة (يخرج شمعة يشعلها. شفيقة تأتي بفانوس مشتعل المعلم يطفئ الشمعة. ويظل ماسكا بها. حائرا لا يعرف أين يضعها..)

شفيقة: لم نعد بحاجة اليها. الاتعيدها إلى.. الحقيبة..

المعلم: (ملسوعا) الحقيبة؟ الحقيبة ثانية؟ الا تقولين لي ما سر تعلقك الغريب هذا بالحقيبة انها حقيبة عادية. لا تحوي غير لوازم الدرس ومستلزمات المعلم. هل اخبرك احد انها تحوي قنبلة نووية. أو جثة متقطعة؟.. (يندفع نحوها بانفعال) من؟ ها؟ من الذي اخبرك؟ قولي.. تكلمي!

شفيقة: (تتراجع دافعة السرير إلى المزيد من العمق) لا. لا.. وي.. وي..

المعلم: وحتى في حالة حصوله فهو من قبيل الاخبار الكاذب. لا تصدقيه. ومع هذا فانا على اتم الاستعداد ان افتح لك بطني من الظهر إلى الظهر.. واريك كل أحشائي الداخلية. ولكني لن ادعك تلقين نظرة واحدة إلى داخل الحقيبة.. (يرمي الشمعة، يغلق الحقيبة بقوة) خذي الشمعة لك. وانسي الحقيبة.

شفيقة: (تشير إلى راسها علامة اختلال عقله، لنفسها) مجنون.. قطعا هذا المعلم مجنون.

المعلم: بماذا تهمهمين؟ بماذا تهمسيتن. انا يجب ان اعرف كل شيء. كل شيء..

شفيقة: انت منهك حضرة المعلم.. تبدو منهكا.

المعلم: طبعا انا منهك.. منهك ومتعب ايضا. بل في غاية الانهاك والتعب. حتى الحديد ينهك ويتعب. واذا كان الحديد نفسه ينهك.. فلماذا لا انهك انا.. وانا.. انسان مخلوق من لحم ودم ولست مصنوعا من حديد.. آه.. آه.. (يتهالك على احد المقاعد) هاتي كأس حديد.. اعني.. اعني كأس عصير.. عصير الطماطم (تصب له كأسا، يفرغها في جوفه) اعيدي الكرة. (يشرب) قدحا ثالثا (يشرب) لذيذ. مصنوع بحذق ومهارة (تقدم له كأسا اخرى. يدفعها) تصرفي في حدود الامر الصادر اليك. (يلتفت هنا وهناك).

شفيقة: (تعلق. تحاول اشغاله) تفضل إلى مكان الدراسة الذي اعددته. وسآتيك بالعصافير.. عصافير نصف مسلوقة.. نصف نية.. مقلية.. نصف حية.. نصف ميتة.. نصف..

المعلم: (يقاطعها) ستأتين بها حين أمرك. التزمي بحدود الامر حسب. واعلمي ان الزائد كالناقص. بل الزائد في معنى من معاني العلم الحديث هو الناقص بعينه. (يعود إلى البحث بعينه. هنا وهناك. ويتسمم)

شفيقة: (تحول بينه وبين السرير) والناقص يا سيادة المعلم؟ الناقص؟

المعلم: (ساهيا، لا يزال يتشمم) ها؟ ما باله؟ ما بال الناقص.. يا سيدة؟

شفيقة: هل يمكن ان يصبح في معنى من معاني العلم الحديث. او العلم القديم، زائدا؟ اعني.. اعني.. مثل الزائد، بعينه. صنواً له. حاله كحاله تماما. لا يختلف ولا يتميز عنه بشيء. أي شيء؟

المعلم: ها؟ (تنتابه حيرة حقيقية، فجأة، كما لو كان ازاء معضلة فكرية في غاية التعقيد) لم لا؟ جائز. الامر يبدو جائزا. او.. لا.. لا. لا يجوز. لا يمكن (ثم) الحق اقول. ذلك سؤال لم اطرحه على نفسي قط.

شفيقة: (متصنعة الاهتمام الشديد) اطرحه. يا سيادة المعلم. اطرحه الان ارجوك..

المعلم: (كمن يهرب من شيء مخيف) لا. لا. لا اجرؤ البتة السؤال اكبر مني. اكبر بكثير.. لا بد أن اقر.. لا بد أن اعترف..

شفيقة: آه.. واخيبتاه! اسأل من إذن.؟ من الذي يجيبني؟. من يحل لي هذا اللغز المحير؟

المعلم: سيدي المفتش. لا تقلقي ولا تحزني. هو رجل عالم يعرف كل شيء يحيط به مجموعة كبيرة من المكاتب التوجيهية.. تضم كافة الاختصاصات وسائر العلوم والمعارف النظرية والتطبيقية (يكتب) سأرفع السؤال إلى مقامه العالي كتابة. وفي غضون شهور قليلة تكون الإجابة الشافية.. جاهزة (ثم فجأة يتوقف) ولكن قولي لي.. مالك أنت وهذا السؤال الكبير، المقلقل للدماغ.. الذي لم يرد على ذهني.. حتى أنا.؟

شفيقة: أريد أن اعرف. أريد أن أتعلم.. أريد أن..

المعلم: بل تريدين أشغالي عن القضية الأساسية التي كنت بصدد طرحها ودفنها في سؤال معجز. لو اجتمعت الأمة كلها وقضت بقية حياتها في البحث عن جواب له.. لما عثرت عليه (يمزق الورقة التي كتب فيها السؤال).

شفيقة: القضية؟ أية قضية؟

المعلم: الرائحة التي غزتني بشراسة أول ما دخلت.. والتي أنساني اياها الضوء الساطع الذي..

شفيقة: (تقاطعه) ليست في البيت أية رائحة.. يا حضرة المعلم!!

المعلم: او تجرؤين على تكذيبي؟ هل يمكن لمثلي ان يكذب؟

شفيقة: لا.. لا.. ولكن.

المعلم: إذن.. فأنت التي تكذبين.

شفيقة: انا؟

المعلم: لم لا؟ وما العجب؟ كل إنسان يكذب ام تراك لا تنتمين إلى جنس الإنسان؟ انا وحدي الذي لا اكذب أبدا. وأنا قلت ثمة رائحة في البيت. وانت قلت لا رائحة في البيت هل حدث الأمر على هذا النحو ام لا.؟ قولي حدث.. (يسرع في الإجابة) لقد حدث. إذن. المقالان متوازيان، اعني مقالك ومقالي_ اقصد_ ما قلته انا وما قلته انت، ولا يلتقيان ابدا ولماذا لا يلتقيان لان بينهما تناقضا ابديا. وخلافا خالدا لا يمكن تجاوزهما ولا التصالح بينهما اطلاقا. هل هذا واضح؟ قولي واضح.

شفيقة: (بسرعة) واضح.. واضح..

المعلم: ولماذا هذا الاختلاف الشنيع. وذلك التناقض الفظيع بين المقالين؟ ها؟ لا تعرفين اليس كذلك. انا اخبرك لأن احدهما صادق مائة في المائة. والاخر كاذب مائة في المائة.. مفهوم. هل الموضوع حتى الان.. مفهوم

شفيقة: مفهوم.

المعلم: ومؤلف المقال الصادق، اعني صاحبه وقائله، وحده الصادق. صح؟

شفيقة: صح

المعلم: وصاحب المقال كاذب اعني قائله ومؤلفه وحده الكاذب. صح؟

شفيقة: صح

المعلم: ولماذا صح. يا سيدة شفيقة. لماذا صح (حائرة لا تعرف بماذا تجيب) هيا. هيا.

اجيبي بلا خوف. هيا.. هيا انا اساعدك. قولي لان صاحب المقال الصادق لا يمكن الا ان يكون صادقا. ولان صاحب المقال الكاذب لا يمكن.. الا ان يكون كاذبا. ولا يمكن لاي منهما ان يكون صادقا وكاذبا في الوقت نفسه. اليس كذلك.؟

شفيقة: وهي تكاد تختنق).. كذ.. كذلك.

المعلم: ومن منا صاحب المقال الصادق؟ هيا.. هيا.. اعترفي. الاعتراف بالخطأ فضيلة من ها؟ (اشارات خفيفة إلى نفسه) آ.. أنــ.. أنــ..

شفيقة: انت.. انت.

المعلم: وصاحبة المقال الكاذب انت. اذن كأستنتاج منطقي سليم. اكون. انا.. الصادق. وتكونين انت الكاذبة (يتهالك لاهثا) اه. ما اشق تعليم الجهلة والاميين. (يصب لنفسه قدحا من العصير. يفرغه في جوفه).

شفيقة: (كمن تزيح عن روحها كابوسا ثقيلا) كان الله في عون التلاميذ.

المعلم: وهكذا توصلنا إلى الحقيقة. الحقيقة الواضحة وضوح نظارتي هذه (يشير إلى نظارته السوداء) على عيني. الا وهي ان في البيت رائحة.

شفيقة: (مقلدة طريقته في الكلام) ما دمت قد قلت ذلك فلابد ان يكون ذلك كذلك. اما لماذا لا بد ان يكون ذلك كذلك. فلانه لا يمكن ان يكون ذلك كذلك وان يكون ذلك. في الوقت نفسه غير كذلك. وكأستنتاج منطقي بسيط يجب ان يكون ذلك كذلك. وان لم يكن ذلك كذلك فالواجب يقتضي ان تجعل ذلك يكون كذلك. (المعلم يبتسم متهلل الوجه) اليس كذلك..؟

المعلم: هائل.. مذهل: انت ترتقين سلم المعرفة الوعر الخشن. بسهولة وليونة. الله: الله: وتأسيسا على ما تقدم وتقديرا لقدرتك الخارقة في الاستجابة للمطلوب. سأتجاوز موضوعة الرائحة واعتبرها غير قائمة من اساسها

(يشرب) اظنني بحاجة إلى المزيد.. من هذا الشراب الساحر (شفيقة تظل واقفة) هاتي لي المزيد.. هاتي المزيد (يفتح الحقيبة. يستمع إلى مذياع صغير بانتباه شديد) تمام كل شيء تمام (يعيده إلى الحقيبة. يغلقها، نعطيه قدحا كبيرا) والسيد؟ أين السيد؟

شفيقة: آ.. آ.. السيد؟

المعلم: ما لي لا اراه؟ لماذا لم يخرج لاستقبالي! أين هو؟

شفيقة: شفيق؟ انت تسأل عن شفيق..؟ موجود.. في انتظارك.

المعلم: السيد شفيق يا هذه.. السيد شفيق. ماذا يفعل.:

شفيقة: نائم اظنه قد نام.. لقد نال منه التعب والانهاك، ساناديه.

المعلم: هل حفظ درسه بصورة جيدة.

شفيقة: كالببغاء. لو كانت لهذه الجدران اذان والسنة.. لرددته معه. هل اناديه؟

المعلم: (يومىء ايجاب. يصدر من الجد صوت) ما هذا الصوت (يقفز نحوه) من هذا الرجل الغريب؟ ماذا يفعل هنا...

شفيقة: انه الاسطة سلمان وليس هو الغريب (تطرق الباب) انه جده.. جد شفيق

المعلم: جده؟ لماذا يحتفظ في البيت بجد منخور وهو الذي لم يطق ابويه (يكتب) لا. لا. انها قضية ليست في صالحه.. ليست في صالحه البتة

شفيق: سيدي المعلم انا جاهز. يقبل نحوه (على راسه قلنسوة وعلى كتفه جهاز تسجيل. متأبط مجموعة من الدفاتر والاقلام في حالة شديدة من الطاعة والوجل يسير محني الرأس يتعثر في مشيته يخطف يد المعلم يلثمهما بخشوع. يتراجع يقف على مبعدة منه دون ان يجرؤ على رفع عينيه نحوه)

المعلم: ما شاء الله.. ما شاء الله!! تماما كما وصفوك لي. ادب وطاعة واخلاق (شفيقة تبحلق تبحلق فيهما وقد صعقتها الدهشة) ما لك تبحلقين فينا على هذا النحو الغريب؟ هل ترين امرا منكرا (تحاول ان تتكلم. يسكتها) هيا هيا انقلعي انت وعجوزك المنخور لا اريد ان اشم رائحته ولا اسمع صوته.

شفيقة: (بغضب) انه هنا في بيته وعلى من يتضايق من وجوده ان..

شفيق: (يقفز نحوها) اسكتي ارجوك.. واسرعي بتنفيذ الامر ارجوك.

شفيقة: كيف؟ وانت تعرف انه ليس في البيت غرفة تصلح له عدا الغرفة التي تشغلها. هل توافق ان...

المعلم: يوافق؟ ومن هو حتى يوافق او لا يوافق؟

شفيقة: (بنبرة ذات مغزى) انه السيد.. الم تقل انه السيد.

المعلم: هو السيد والامر والناهي في غيابي انما في وجودي فهو زيرو صفر لا شيء وانا السيد الامر والناهي. اليس كذلك؟

شفيق: بلى. سيدي المعلم بلى هيا هيا نفذي امر سيدي المعلم (يدفعها باصرار اقرب إلى التوسل شفيقة تسرع بادخال الجد إلى الغرفة غير مصدقة).

المعلم: (صارخا) واغلقي الباب جيدا ولا تدعيني اسمع صوته او اشم رائحته لحينما اقرر له مصيره (يسحب الستارة الوسطية) هذه الامرأة تحيرني.. قبل حين بدت لي صالحة اذا ما تولاها احد بالرعاية والتوجيه والان تبدو لي غير صالحة البتة.

شفيق: (مرعوبا) غير صالحة؟ خالتي شفيقة غير صالحة؟

المعلم: مثل امك التي.. (يهم بالكتابة) التي..

شفيق: سيدي المعلم.. سيدي المعلم (يندفع نحوه. يقبل يديـــه. يتـــهالك عليـــه) باجلال جم وخضوع اتم.. اتقدم الى مقامك السامي بالتمـــاس (يتوقـــف المعلم عن الكتابة) اتوسل اليك ان تصفح عنها وتغفر لها زلاتها ليـــس لي سواها تخدمني فلا تحرمني منها ارجوك.. ارجوك.

المعلم: اتحبها؟ (يومىء بعد تردد قصير ايجابا) اكثر من واجباتك؟

شفيق: (بسرعة) لا. لا.

المعلم: اكثر مما تحب معلمك؟

شفيق: (كمن يدفع عن نفسه تهمة) لا والف لا. بكل تاكيد لا

المعلم: حسن.. هذا حسن (ثم) مستجاب التماسك مستجاب.

شفيق: (ينهال عليه تقبلا ولثما) آه.. سيدي الكريم.. انا.. انا منذ اللحظة عبدك..

المعلم: (يبعده عنه برقة) والان لنبدأ الدرس، فثمة مجاميع اخرى فـــي انتظـــاري يجب ان التقيهم. قبلما يحل الليل.

شفيق: (رد فعل عنيف) الدرس؟ سيدي أأ. اتعني ما تقول؟ تعنيه حقا..

المعلم: طبعا. طبعا. ولنجلس (يجلس يستمع إلى الراديو ثانية)

شفيق: (يكاد ينفجر) ونجلس؟ ووو.. نجلس ايضا سيدي المعلم؟ نجلس؟

المعلم: وهل ندرس وقوفا (يضحك) اعرف ان ثمة اناسا يموتـــون وقوفـــا. وقـــد شاهدت بعضا منهم بنفسي. ولكني لم اسمع ولـــم ار اناســـا يدرســـون وقوفا. هل كان المعلم السابق.. يدرسك وقوفا.

شفيق: لا جلوسا.

المعلم: اذن ماذا هناك؟ هل توجعك ساقاك ولا تســـتطيع طيّـــهما مثلـــي؟ اجلـــس ومددهما. لا بأس.. انا اسمح لك بذلك.

شفيق: سيدي ما من الم ولا وجع في الكون كله. يمكن ان يمنعني من تلقي الدرس وبالهيئة التي نقضيها طقوسه وتقاليده المقدسة.

المعلم: ما الامر اذن. قل تكلم ولا تجنني.

شفيق: سيدي. انا لا اجنن معلمي.. انا افديه بروحي.

المعلم: بل انت تجنني فعلا. اما لماذا فلا ادرى. ربما لاني عنفت وقرعت.. خالتك العزيزة التي تحبها.

شفيق: ما فعلته مع خالتي. سيدي المعلم هو عين الصواب. تصرف تربوي سليم ولا غبار عليه. ولو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه بل ولسرت ابعد منك ولم اكن لاغفر لها.. ابدا.

المعلم: (بدهشة) و.. وتزعم انك لا تجنني.. يا هذا..

شفيق: انا يا سيدي المعلم. احاول ان الفت نظرك إلى..

المعلم: تلفت نظري؟ (ينهض ويصفعه بقوة) هل نسيت من انا ومن انت يا وقح.

شفيق: (يترنح ولا يسقط) انت سيدي المعلم. وانا خادمك التلميذ. (يقف بذله)

المعلم: ومع هذا تطلق لسانك علي بكلمات اكبر من حجمك الكبير هذا (يخضه).

شفيق: انا استند إلى واجبي كتلميذ مخلص وليس إلى حجمي..

المعلم: وهي يقتضي واجبك هذا.. ان تهين سيدك؟

شفيق: استغفر الله. فقط اريد ان انبه سيدي إلى بديهة. لا يستقيم الدرس بدونها.

المعلم: بديهية؟ بديهية ولا اعرفها؟ هل يعقل.. تعرفها انت وانا لا اعرفها.. ما هي. قلها.. قلها..

شفيق: (مستهولا) الا.. الا تعرفها حقا؟ اتجهلها.. فعلا؟ لا. لا. انت تمزح..

المعلم: (يضبط اعصابه بصعوبة) اجل. لا اعرفها. اجل اجهلها.. وانا.. انا جاهل.. انا غبي.. قلها.. قلها بسرعة. ولا تتلذذ بتعذيبي.

شفيق: على العكس. يا سيدي. انا يصيبني السرطان. اذ اصاب معلمي الزكام.

المعلم: بل انت تضطهدني. انت تذبحني. انت تخنقني. انت.. (يهجم عليه، يقبض على خناقه) قلها. قلها قبلما اكتم انفاسك، وارسل روحك الى الجحيم. تذكر اني ما زلت المعلم ودمك مباح لي. تكلم.. تكلم. انا آمرك.

شفيق: (بصوت مخنوق) الرياضة.. سيدي.. الرياضة الرياضة.

المعلم: اه.. علي لعنات الارض والسماء (يضرب راسه. يحتضن شفيق يقبله) دعني اقبلك.. دعني احب راسك (يقدم له رأسه) والان ستنسى لي هذه الهفوة الصغيرة.

شفيق: (وهو يلهث) انها. انها ليست هفوة، با سيدي ناهيك عن كونها صغيرة.

المعلم: آ.. آ.. صحيح انها غلطة شنيعة. غلطة بشعة. غلطة فظيعة. اعرف.

شفيق: لا. لا. سيدي المعلم لا.

المعلم: انه اثم كبير (شفيق يهز راسه نافيا) اذن فهو ذنب. ذنب كبير.

شفيق: لا. لا. ينبغي ان نكون دقيقين في اطلاق التسميات وكل ما ذكرته حتى الان بعيد.. بعيد جدا عن الاسم الحقيقي.

المعلم: (مرعوبا بصوت مرتجف) آ.. آ.. اعتبرها جـ.. جـ.. جريمة.

شفيق: بدأت تقترب من الاسم الحقيقي. ولكنك لم تبلغه بعد.

المعلم: وماذا بعد الجريمة. هل ثم فعلة اكبر من الجريمة؟

شفيق: هناك سيدي المعلم (صمت متوتر) الخيانة!

المعلم: الخيانة (يكاد ينهار) مرة واحدة؟

شفيق: (بثبات) سيدي المعلم بالضبط الخيانة..

شفيقة: (خارجة تاخذ اناء كبيرا وابريق ماء وقطعة صابون ومنشفة وتعود)

المعلم: (يرتعد) ويحي!! هل المسجل يعمل؟ اعني اعني يسجل؟

شفيق: بمنتهى الدقة والنظافة يا سيدي المعلم. هل اعيد الشريط لنتأكد؟

المعلم: آه وامصيبتاه!! (بسرعة) شفيق تخلص منه. تخلص من المسجل.

شفيق: من.. من المسجل؟ ما الموجب؟ (يحتضنه بحرص شديد)

المعلم: (متراجعا) لا. لا موجب يبدو ان لساني قد فلت مني. خرج عن طوعي

شفيق: المسجل يا سيدي المعلم، هو الشاهد الوحيد علينا حين نختلي للدرس، شاهد لا يدحض ولا يناقش. ولهذا ينبغي ان لا يفارقنا قط

المعلم: ولكنك لن تدع احدا يستمع الى الشريط؟

شفيق: بالتأكيد اذا لم يسألني احد فلن ابادر انه خاص وشخصي جدا

المعلم: واذا سألك احد؟

شفيق: ذلك يتوقف على من يكون ذلك الاحد. ان كان تلميذا مثلي فلست ملزما

المعلم: و.. واذا كان معلما مثلي؟

شفيق: ما دمت تحت امرتك فلا سلطان لاي معلم اخر علي. انا تابع لك

المعلم: صحيح كل ما تقوله صحيح (بحقد دفين وحسد خفسي) الا يخطىء هذا الصبي ابدا؟ ام انا الذي رحت اتخبط ولا اعي ما اقول وكلما تكلمت فضحت نفسي وكشفت المزيد من عوراتي المستورة (له) ترى كيف يكون موقفك امام السيد الكبير؟

شفيق: معالي المفتش؟ ايجابيا بكل تاكيد. اخبره بكل ما جرى واسلمه الشريط ايضا.

المعلم: ولكن ذلك كفيل بقلب الدنيا راسا على عقب. واعادتي الى الصفر الذي كنت

شفيق: سيدي المعلم لم كل هذا الخوف والقلق؟ قد لا يسأل معاليه عن الشريط

المعلم: بل يسأل. انا اعرفه جيدا (ثم) شفيق اغفرها لي.. اغفرها.. ارجـوك لـي هذه المرة حسب واعدك ان لا اعود اليها ما حييت (يقبل يديه)

شفيق: (مترفعا) معاليه هو الذي يغفر اذا شاء

المعلم: معاليه لا يعرف شيئا. نعطيه شريطا.. اخر. معي مجموعة من الاشـرطة وكلها في صالحي (يفتح الحقيبة. يقـدم لـه مجموعـة مـن اشـرطة الكاسيت) اختر منها ما تشاء

شفيق: (يمد يده بتردد يتوقف) لا. سيدي لن اخون ضميري

المعلم: ضميرك؟

شفيق: ضميري الذي صاغته تلك الجهود الكبيرة التي بذلها سـادتي المعلمـون الذين تناوبوا على تربيتي وتعليمي طيلة السنوات السابقة.

المعلم: ولكن ما تمارسه شيء فظ.. فعل قاس.. عمل متوحش.

شفيق: (يغمض عينيه. ويردد بشكل الي) في ممارسـتنا لافعالنـا التـي نراهـا صحيحة ينبغي ان لا نحفل بالصفات التي تتصف بها ولا بمدي الضـرر الذي تلحقه بالاخرين (له) ذلك هو القانون الذي زرعه في اعماقي كـل من تولى تدريسي

المعلم: والنتيجة يا شفيق. يا ابني النتيجة؟ اما من سبيل؟ اما من وسيلة؟ (يـهز رأسه موكدا) واذا قلت لك باني سوف امنحك موقعاً افضل مما..

شفيق: (يقاطعه) المباديء فوق المساومات سيدي المعلم. ذلك بعض ما تعلمتـه منكم..

المعلم: (بحدة) ومن ذكر المساومة او المتاجرة بالمباديء وما شابه كل ما هنـالك اني افكر ومنذ زمن بتوسيع نطاق عملك بحيث يشمل مراقبه الصف..

شفيق: كثيرا ما العب هذا الدور في غياب سادتي المعلمين. واحيانا حتى في حضورهم. اذ ينال منهم التعب او ينشغلون بتناول الطعام او الاستسلام الى النوم

المعلم: من حقي اسناد المهمة الى تلميذ اخر..

شفيق: ليس من حقك. سيدي المعلم. فانا وباعتراف الجميع اكافأ الجميع.

المعلم: الكفاءة مسالة تقديرية. حالة متغيرة.. ليست ثابتة ولا ابدية.

شفيق: تبقى ثم التقارير الايجابية التي..

المعلم: هي الاخرى ليست خالدة. ما اسهل الغاءها او تغييرها بجرة قلم. اضافة حرف هنا وشطب حرف هناك. يحب دروسه ويطيع معلميه مثلا. يصبح لا يحب ولا يطيع ولا يخالف ولا يعارض القوانين التربوية يصبح يخالف ويعارض وهكذا دواليك حتى يتغير تاريخك كله..

شفيق: اذ ذاك لا املك الا ان اكشف الحقيقة. الحقيقة كلها وعندي الدليل الذي لا يدحض ولا يناقش (يلوح بالشريط.. المعلم يتعذب) سيدي اننا نهدر الوقت والجهد جزافا لنشرع بالرياضة الروحانية فهي ستفضي بنا لا شعوريا الى الدرس الذي تذوب فيه ذواتنا وتتبخر همومنا الشخصية عبره..

المعلم: لا استطيع. لقد تعكر مزاجي بل اضطربت روحي وانهارت معنوياتي.

شفيق: ما الذي اسمع يا سيدي المعلم؟ مزاج؟ معنويات؟ انهيارات لا..لا انا اربأ بك ان تصدر منك كلمات من هذا النوع الغريب.

المعلم: قل عني ما تشاء. تخيلني بالصورة التي تريد. فان شيئا في داخلي قد تهشم. فارحمني يا سيدي اشفق على يا شفيق يا ولدي ولن انسى لك هذا الجميل وهذا الفضل ما حييت واجازيك باضعاف الاضعاف.

شفيق: سيدي ارجوك لا تزد الطين بلة. يجب ان تخرج من هذه الاوحـــال التـــي تتخبط فيها. وتتخلص من مشاعر الضعف التي تنخر في كيانك

المعلم: كيف يا شفيق؟ كيف..؟ آه.. ساعدني.. أعني.. علّمني.. علّمني..

شفيق: ثمة طريقة واحدة فقط (يتعلق كل كيان المعلم بشـــفتيه. بلهفـــة وترقـــب) وهي.. الاقتحام الفوري للتجربة. والاحتراق الاني فـــي نـــار الرياضـــة الروحانية. ثم الولوج إلى الدرس. وبعدها ستجد نفسك نظيفا. خاليا مـــن الشوائب مثل الفولاذ. صافيا من الادران مثل الطلقـــة. نفـــاذا كالســـهم. قاطعا كالشفرة (بحماس) هيا، سيدي المعلم، هيا. لا تضيع ثانية واحـــدة والا ندمت العمر كله [يستعدان. يقف احدهما في مواجهة الاخر. لثـــوان يطبق عليهما صمت تام. لا يتنفسان ولا يحركان ساكنا.. ثم اذ يحـــرك احدهما حاجبيه او شفتيه او رأسه يفعل الاخـــر مثلـــه تمامـــا ورويـــدا رويدا.. تتغير حركاتهما وتتخذ افعالهما طابع.. العنف المتزايد. كل ضـــد نفسه اولا. ثم ضد الاخر. ضربات.. صفعات. لكمات. ركلات. يترنحـــان يتوازنان بصعوبة. يتهالكان لا يقويان على الكلام.]

المعلم: شفيق، اظنني شفيت من كل امراضي لو.. لـــــو.. كـــأ.. س.. عصـــير.. (ينهض بصعوبة) و.. والعصا.. فير..لا.. لا.. تنس.. العصا..فير.

شفيق: أ.. ا.. مرك.. سيدي.. أمر.. ك. (يخرج مترنحا. يعود بالمطلوب. يـــأكلان ويشربان، بنهم) لقد اجتزنا الخطوة الاولى بنجاح..

المعلم: واي نجاح.. وكل ذلك بفضلك..

شفيق: عفوا استاذي الجليل.. ما انا الا تلميذ صغير.. من تلامذتك..

شفيقة: (خارجة باناء الماء وشدة ملابس، تخـــاطب الجـد) ســآتيك بملابســك النظيفة. حالا. (تلقي بها في المطبخ. وتسرع على رؤوس اصابعها إلــى الطابق العلوي.. بحذر)

المعلم: (يغص باللقمة التي في حلقه. ينتصب واقفا) ما هذا؟ اه.. ما هذا؟

شفيق: (في مثل حاله) ماذا. سيدي المعلم.. ماذا هناك؟

المعلم: لمحت شبحا يتلصص علينا و.. و.. مرق إلى الطابق الثاني. آثمة ثقــوب؟ فتحات؟ في الطابق الثاني؟ اقصد اقصد.. في السقف (يتفحصه)

شفيق: (يتفحص مثله) لا أحد في البيت. عدا العجوز.. وخالتي. وهي لا تقـــترف فعلة شنعاء كهذه.. والباب الخارجي موصد وما من احد دخل.. او.. او

المعلم: أذن.. فهو العجوز!

شفيق: العجوز مقعد. مشلول. اصم. اخرس. في غيبوبة دائمة.

المعلم: وما ادراك ان مرضه بكل تشعباته ليس الا ستاراً لخداعنا؟

شفيق: (مستهولا) هل يمكن (ثم بخوف) تلك حقيقة.. غابت عني.

المعلم: اذن؟ ما رأيك (بسرعة) انا ارى ضرورة التخلص منه وباسرع وقت. قبــل وصول معالي المفتش (لا يحير جوابا) ها؟.. لم لا.. تبدي رايك؟..

شفيق: وهل بقي لي رأي..؟ لقد طعنني جدي من الخلف .. سيدي. الرأي رأيـــك والامر امرك.

المعلم: (يفتح الحقيبة ويرسل اشارات خاصة. ويكتب) والان إلى الــدرس (يغلــق الحقيبة) هيا.. ردد معي.. او.. او.. اسمعني انت اولا الـــدرس. هيــا.. هيا.. ماذا بك..

شفيق: (بانكسار) الـــ.. بحث.. القـــ.. القـــ (ثم) لا اقوى يا سيدي. لا اســتطيع.. اشعر ان معنوياتي قد انهارت.. وذاكرتي تفتت.. و.. و..

المعلم: لا الومك. فليس هينا على المرء ان يكتشف انه يأوى فـــي داره خائنـــا. ومع هذا حاول (شفيق منـــهارا تمامـــا. يعجـــز) انصحـــك بالرياضـــة الروحانية.. فانها تطهرك ولو مؤقتا لحين ما تنهي امتحانك.. وتمنحـــك القوة.. اه.. ها هو نزل ثانية (شفيقة تنزل حاملة ملابس نظيفة.. تدلـــف غرفة الجد) اه.. انها خالتك. خالتك يا شـــفيق انـــها متواطئـــة معـــه.. وخائنة مثله.. (ينظر من فتحة الستارة).

شفيق: خالتي؟ حتى خالتي. انا.. انا.. لا. اه. لا.. لا..

المعلم: بالامس امك واليوم جدك وخالتك.. حتى خالتك التي تحبها والتي لم يعـــد لك عداها احد.. اية اسرة موبوءة بداء التلصص و..

شفيق: سيدي انا بريء منهم جميعا. سيدي انا ابغضهم جميعا. العنهم جميعا.

المعلم: (يكتب ويرسل اشاراته) الارض الخبيثة لا تنبت غير النبتة الخبيثة..

شفيق: اه.. حتى انا ايمكن انه يبلغ بك الشـــك.. فـــي حتـــى انـــا؟ اه. لا. لا.. الموت ارحم. ارحم لي.. (يلطم وجهه)

المعلم: لا تصرخ لا تولول. تعال وقع على شهادتك ضدهما وضد نفسك.

شفيق: حاضر سيدي المعلم (يوقع يقف بذله) شكرا. سيدي.. المعلم.

المعلم: شكرا؟ تقول شكرا؟ اتعلم ان هذه الورقـــة التـــي وقعتـــها تقضـــي علـــى مستقبلك.

شفيق: اعلم. سيدي.. اعلم.. وانا استحق ذلك.

المعلم: (على الرغم منه) اه.. يا شفيق. يا رائع. انت تلميذ نادر المثـــال. ولكـــم يحز في نفسي ان افرط بك. ولكن الواجب واجب. ولا تلم غير نفسك.

شفيق: انه قدري. قدري الذي انبتني في عائلة من الوحل. (بصوت باك) الحكـــم لك.

المعلم: بل له. لمعاليه. انا اضع امامه الحقائق والادلة. وهو من يصـــدر الحكـــم. (بحسرة) واليوم موعد زيارته وانا اعرف كم هو شـــديد وصـــارم. ولا يتساهل ولا يتسامح. اه. ان سيشهد اليوم خاتمة انبغ تلميـــذ التقيتـــه.. وخاتمتي ايضا.

شفيق: اما من طريقة.. اما من وسيلة؟ (المعلم يهز رأسه نفيـــا) لابـــد ان ثمـــة طريقة. ثمة وسيلة.. او.. او لا بدّ من.. ايجاد طريقة.. خلـــق وســـيلة (يفكر. ثم فجاة) سيدي المعلم! سيدي المعلم..

المعلم: لا يا شفيق. لا. لا تحاول التأثير على. فانا الاخـــر لســـت اقـــل صرامـــة وتمسكا بالحق من معاليه (شفيق ينخذل) ولكن.. لا بـــأس.. لا بـــأس.. قل.. تكلم..

شفيق: برقت في ذهني فكرة. يمكن ان تنقذنا كلينا مما أوقعنا فيه أنفســـنا.. او.. او.. أوقعنا فيه القدر (يتعلق بشفتيه. متلهفا) لقد وجدت، بعدما أمعنـــت الفكر واشغلت العقل. ان التضحية بمعلم، عظيم القـــدر غزيـــر العلـــم، مثلك.. خسارة كبرى، لا تعوض..

المعلم: كأني أشم رائحة مساومة.. و.

شفيق: (مستعيدا نبرات المعلم) من ذكر المساومة او المتاجرة.. بالمبادئ.. خـــذ (يقدم له الشريط. المعلم يصعق. يهم بخطفه شفيق يماطله) يا تـــرى.. هل ثمة ضرورة للاحتفاظ بالأوراق التي..

المعلم: لا. لا بالتأكيد (يعطيه الاوراق ويخطف الشريط يعطيه شريطا اخر) خـــذ.. خذ هذا الشريط.. انه سليم لا غبار عليه. اه.. اه لا اكاد اصـــدق ان الله قد رأف بحالنا وكتب لنا حياة جديدة (يتبادلان القبـــل والتـــهاني. مـــن

الحقيبة تصدر اصوات غريبة) هش.. هش.. (يهرع اليـــها. يضطـــرب كثيرا) اه.. اه.. اوه.. لا..

شفيق: ماذا هناك سيدي المعلم؟

المعلم: التلاميذ يا شفيق.. مجاميع التلاميذ. تـــاخرت عليـــهم وهـــم غـــاضبون. هائجون (يلطم وجهه) اه.. اه.. ماذا افعل.. انا منهك.. لا اقـــوى علـــى جر رجلي..

شفيق: امرهم ياتوا هنا.. انا احمل عنك العبء

المعلم: انت؟ انهم بالعشرات.. بالمئات..

شفيق: ليكنوا بالالاف. ارجوك سيدي ارجوك..

المعلم: ومعاليه؟ اتراه يرضى.. ان..

شفيق: بل يمتليء فخرا واعتزازا. بك.. انت اولا. فقد علمت واحســـنت التعليـــم. وربيت واجدت التربية. وهيأت من تلامذتك الصغار. تلميذا لهذه المهمـــة الكبيرة.. هيا.. هيا.. يا سيدي..

المعلم: (في غاية الارتباك والحيرة).. يبدو.. كأنه الحل الوحيـــد. (مندفعـــا) لـــم لا..؟.. (يرسل اشاراته ويتكلم بلغة غريبة) انهم قادمون يا شـــفيق.. لا تخذلني. لا تخيب املي فيك.. هيا.. هيا.. استعد.

شفيق: (في حالة غريبة) اه.. اه (يتلوى)

المعلم: ماذا دهاك..؟ انت ترتعد.

شفيق: بل ارقص فرحا. فاضت بي النشوة واخشى ان تقضي على قبلمـــا التقـــي بهم

المعلم: تماسك يا شفيق. تماسك وتوازن. انه يومك المنشود عدل هندامك (يعـــدل هندامه) هكذا.. هكذا.. جميل.. رائع.. هيا.. هيا.. ردد الدرس..

شفيق: (يساعده المعلم حتى يطغي عليه) بحثت القطة عن اللحم. لم تعثر القطة على اللحم. هجمت القطة على الفأر.. اويلاخ على الفأر.. (يكررانه مرات عديدة. مصحوبة بطقوس اللطم والضرب.. حتى يغلبهما الوجد.. وتصبح حركاتهما اشبه بحركات الدراويش في حلقات الذكر. اصوات من الخارج. ضاجة. صاخبة، تردد الدرس نفسه. تقترب) وصلوا. تلامذتي الصغار الاحبة وصلوا.. (يتراجع خائفا الى الوراء)

المعلم: انت تتراجع يا شفيق. تقدم. افتح لهم الباب. كن جديرا بالمهمة الملقاة على عاتقك.. برر الثقة التي منحتك اياها.. هيا.. (يدفعه الى الباب)

شفيق: (يفتح الباب، تتدافع وتتدفق الجموع. باعداد غفيرة، ذكور واناث. مرتدين سراويل قصيرة مخططة وقمصانا وقلنسوات من القماش نفسه. شفيق يصعق للاعداد الهائلة. يرتبك.. يتلعثم) انا.. انا شفيق.. شفيق معلمكم الجديد (لا أحد يحفل به. يتوجهون نحو المعلم، الذي يستقبلهم بالترحاب والابتسام وهم.. يقدمون له فروض الطاعة. دون ان يتوقفوا عن ترديد الدرس. يدفع الزخم البشري الذي لا ينقطع، شفيق الى الوراء)

صوت: (من الخارج. بعيد) معالي المفتش.. قادم

المعلم: آه.. معاليه قادم.. رددو يا تلاميذ.. رددوا.. بقوة. بحثت القطة عن اللحم.. (تزداد الاصوات صخبا وعنفا.. ترتج.. اركان البيت. تخرج شفيقة فزعة)

شفيقة: ما هذا؟ زلزال؟ هل حدث زلزال (تصعقها المفاجأة. ترتد الى الداخل) اه يا الهي. ما هذه المخلوقات الغريبة.

صوت: معاليه وصل. افسحوا الطريق. لا تلمسوه. ابتعدوا عن طريقه.

المفتش: (وهو رجل قميء مبتور الذراعين والساقين. فـــوق عربـــة معوقيـــن. يدفعها بعضهم. يخف المعلم لاستقباله. صوته اشبه بالزعيق) ما شـــاء الله..ما شاء الله! اكل هؤلاء.. تلامذتك. يا سيد رؤوف؟

المعلم: كلهم يا سيدي.. كلهم. وثمة اخرون عديدون.. مقبلون.. يا استاذ حنون

شفيق: (صوته من بين الجموع) انهم تلاميذي انا.. سيدي المفتش.. انهم..

شفيقة: (تدفع السرير. خارج الغرفة تشق طريقها بصعوبـــة بالغـــة. مـــن بيـــن الجموع التي ما تزال تتدفق على البيـــت. تمتلـــيء الصالـــة والغرفـــة. والمطبخ. والطابق الثاني.. يضيق بهم المكان.. يتساقط بعضـــهم علـــى بعض) دعوني اخرج.. اه.. (تدفع السرير بقوة.. تصطدم بهم. توقعـــهم ارضا.. تنجح في الخروج) نجونا.. هل انت بخير. يا عمي؟

المفتش: ما شاء الله.. ما شاء الله.. اللهم زد وبارك.. اللهم زد وبارك...

شفيقة: (صوتها من الخارج) هيا.. عمي.. هيا (تغلق الباب من الخارج)

المعلم: رددوا.. رددوا.. بكل قوتكم.. باعلى اصواتكم. بحثت القطة عن اللحم..

شفيق: اه.. دعوني ار معاليه.. اخبره بما جرى.. اه.. اه (يتلاشى صوته)

المفتش: (يتنفس بصعوبة) هواء.. هواء.. افتحوا الباب.. افتحوا..

احدهم: (يحاول فتح الباب يعجز) الباب مغلق من الخارج..

المعلم: انها هي. الخائنة.. خالته.. اكســـروا البـــاب.. الحقـــوا.. بـــهما.. هـــي والعجوز.. الباب.. الحقوا بهما.. هي والعجوز.. جـــده.. جـــد شـــفيق وخالته

شفيق: لا. انا لا. انا منهما بريء.. انه.. هو.. الذي..

المعلم: بل.. انت. انت من هيأت لنا هذا القبر الجماعي اقضوا عليـــه. لا تدعـــوه يتكلم.. لا تدعوه يتنفس (يهجمون على شفيق ينهالون عليه ضربا)

المفتش: هـــ.. هـــ.. هو.. ا.. ء هواء. انا اختنق. افعلوا.. شيئا. مـــن اجلـــي. انا.. انا.. اختنق.

المعلم: معاليه.. يختنق.. افعلوا شيئا (يحمله من فـــوق العربـــة. يضعـــه فـــوق الثلاجة..) سيدي أأنت بخير.. هل.. آ.

المفتش: (يختض من مكانه) آه.. آه.. انا.. انا.. اموت.. يا اولاد.. انا.. (يتحـــرك حركة عنيفة. يسقط على الارض..) اه.. آ.. آ.. (ينقطع صوته تماما)

المعلم: (يصرخ) آه.. مات. معالي المفتش مات.. اكسروا الباب هدموا الحيطـــان. قبلما نموت.. كلنا.. هنا.. آه..قبلما.. نمو..ت.

[يتدافعون نحو الباب. كل يبغي انقاذ نفسه. فيتكومون على الباب.. بعضهم يسحق بعضا.. بعضهم يتساقط على البعض.. يلهثون.. متقطعي الانفاس. تغـــدو اصواتهم مثل مواء قطط. توشك ان.. تموت. اصـــوات متفرقـــة مـــن هنـــا... وهناك.. ما تزال تردد بوهن وخور.. شديدين.. وبشكل متقطع..]

بحثت.. القطة.. عن اللحم..

لم تعثر القـــ.. طة.. على.. اللحم..

هجمـــ.. ت.. القـــ.. طه.. عا.. على.. الـــ

فأ.. ر، اويلاخ.. على.. الـــ.. فـــ.. أر.. أو.. يلا.. خ.. أ.. و.. يلا.. خ.. علـــى.. الـــ.. فأ..ر..

أويلاخ.. على.. الـــ.. أ.. ر..

[يظلم المسرح.. والمواء يستمر.. لفترة.. ثم يخمد..]